كيف تكون كاتبًا[1]

أيها العزيز ..

سألتني كيف تفعل لتكون كاتبًا، وأرسلتَ إليَّ الفصل الذي جَهِدتَ فكرَك واستنفدتَ صبرك في تحريره وتحبيره. ولعلَّ الدرس الذي سألقيه عليك يكون مضاعف الفائدة فيما إذا دللتك علىٰ مواضع الخطر أو الضعف من ذلك الفصل.

أنت خبيرٌ -أعزَّك الله- بأنَّ للكتابة قواعد عامَّة، وقد طالعتَ بلا ريب تلك القواعد، ولكنك غفلتَ عنها حين وجب استعمالها، بدليل أنك خالفتها، علىٰ ما سأبيِّنه لك، فللتذكير أعيد عليك أهمَّها وأعمَّها.

القاعدة الأولىٰ: يجب أن يكون المُنْشِئ عارفًا باللغة التي يكتب فيها معرفةً تامَّة، وأن يستظهر من مفرداتها كلَّ ما يحتاج إليه لتصوير ما يَجيش في ذهنه من ضروب المعاني.

القاعدة الثانية: أن يؤثِر من أساليب المتقدِّمين في التعبير ما يجعله من فكره بمثابة القوالب التي يُفْرِغ فيها أغراضه، ليبرزها في جُمَل رائقة مستحسنة مؤثِّرة.

القاعدة الثالثة: أن يحيط علمًا بالموضوع الذي يكتب فيه، ويتصوَّره بجملته تصوُّرًا خاصًّا به، علىٰ النحو الذي يتوصَّل معه إلىٰ الغاية التي يقصدها ممَّا يكتبه.

القاعدة الرابعة: أن يُرسِل كلامه مع طبعه، مراعيًا اختيار الألفاظ والعبارات وترتيب عامَّة القصد، بحيث يخرج في كلِّ ذلك عن الابتذال، فيُغْرِب ويُعْجِب.

(١) «المجلة المصرية»، السنة الثالثة، ٢١ فبراير ١٩٠٩. انظر: «خليل مطران، الوجه الآخر، الكتابات النقدية» للدكتور محمد أبو شوارب (١٦٧ – ١٧٣). (ق)

فلنطبِّق الآن رسالتك علىٰ هذه الكلِّيات؛ لتعلم حقيقتها، ويتَّضح لك ما يجب عليك أن تفعله لتكون كاتبًا.

جعلتَ عنوان مقالتك «محمَّد علي وعمله»، بمعنىٰ أنك ستذكر لنا مِن ترجمة محمد علي[1] ومن بيان عمله وما تريد به إظهاره وإظهار ما قام به في مظهر لم يتقدَّمك فيه الكتّاب والمؤرخون، سواءً بأن تمحِّص الحقائق من الأوهام، أو تأخذ بالأخبار الصحيحة الإسناد الموافقة لروايات الثقات، أو تجمع أشتات الأنباء المتفرِّقة في قديم الكتب وحديثها، وتحصِّل من الحكاية المشهورة المتداولة ترجمةً تضعها في أسلوب من السَّرد **شائقٍ** بتأثيره، **رائقٍ** ببسطه أو إيجازه، **غريبٍ** في مقارنته بين الرجل ومثيلٍ له في التاريخ، أو بين العمل وعملٍ يشاكله لأحد المعاصرين أو السَّالفين، **مفيدٍ** بما يكشف لنا من النِّقاب عن الحقائق المجهولة، **مفكِّهٍ** بما يجيئنا به من نوادر سيرته، **فلسفيٍّ** بما يُطْلِعنا عليه من مقدِّمات أفكاره وأفعاله وسيرته، والأحوال النافعة أو الضارَّة التي نتجت منها.

هذا ما توقَّعناه من العنوان، فهل أوصلتنا إلىٰ شيء منه؟

قلتَ في المقدِّمة: «إنَّ محمد علي مؤسِّس البيت الخِدِيوي الرفيع العِمَاد كان أعظمَ **صورة** من صور الشرقيين في هذا العصر»، تريد أنه كان من أعاظِم الناس أو الرجال أو الحكَّام أو السَّاسة أو الفاتحين أو المدبِّرين... إلخ.

فاعلم أولًا أن لفظة «**صورة**» لا محلَّ لها هنا في اللغة العربية، ولكنَّك

(١) محمد علي باشا، حاكم مصر (ت: ١٨٤٩م). (ق)

نقلتها عن اللغة الأجنبية التي تُحْسِنها وهي الفرنسوية، وظننتَ أنها تفي بغرضك وتدلُّ علىٰ ما في فِكرك. نعم، ولكن يفهمها الذين يعرفون تلك اللغة من قرَّاء مقالتك، بخلاف الآخرين وهم الأكثرون.

وهذا أحدُ ألوفٍ من الاصطلاحات التي جرىٰ عليها شبَّاننا في هذا الزمن، فأخطؤوا، ولم يكن خطؤهم لأنهم استعاروا، بل لأنه ندر ما أحسنوا الاستعارة!

فأما لفظة «**صورة**»، فالإفرنج يوردونها في مثل هذا الموضع لِمَا عندهم من الاشتراك المستمرِّ الثابت بين التحرير والتصوير، بحيث يصحُّ القول: إنهم يكتبون راسِمين ويرسمون كاتبين، فإذا سمَّوا رجلًا بالصُّورة أوهموا القارئ أن أهل الفنِّ الفلاني في عصر كذا مرسومون في معرضٍ رسومًا تدلُّ علىٰ كلٍّ منهم، وأن صورة فلان متميِّزة بين أمثالها بالدلالة علىٰ كِبَر قدره.

وليس للاشتراك المذكور أثرٌ عندنا في العربية؛ إذ إنَّ رسم الأحياء محظورٌ دينًا علىٰ المسلمين من آبائها، فالغرض الذي يقصده الإفرنج من «**صورة**» بمعنىٰ «رجل» غير منطبق علىٰ مقتضىٰ اللغة، بل منافٍ له؛ بدليل أنك لا ترىٰ العرب صوَّروا -فيما خلا النقوش- تصويرًا صحيحًا دقيقًا يُعَوَّل عليه في مطلب من المطالب، فكيف يدركون ما يُرمَز به إليه من المعنىٰ البعيد في مثل تلك اللفظة؟! وعلىٰ الكاتب إذن أن يدقِّق النظر فيما يستعيره من مصطلحات الإفرنج، فإن استصلحه لمَزِيَّة، وكان غير مستنكَرٍ في لغته، فبها، وإلَّا فالتَّركُ أحسن.

هذا ما يؤخذ علىٰ تلك العبارة الاستهلالية، وقد أصبحنا نَرقُب بعد قراءتها تفصيل ذلك الإجمال، وكيفية دخولك فيه وإفاضتك في بيانه، غير أن الجملة

التي تلي قد جاءت بمعنىٰ الأولىٰ تمامًا، وهي قولك: «كيف لا وهو نابغة زمانه، ويتيمة دهره، وغرَّة جبين أوانه...» إلخ.

ومن مقتضيات «كيف لا» بالبداهة إيراد البرهان، لا مُراكَمة الجُمَل المعطوفة بعضها علىٰ بعض، المجزوم فيها بصفةٍ لم يؤيِّدها المُنْشِئ بسندٍ ولا بتاريخ، ولا بمجرَّد نقل التواتر الإخباريّ.

ثمَّ أَلْفِتكَ إلىٰ أن هذه الكلمات المترادفة التي وُلِدَت في أيام ضعف اللغة، وليست في شيء من آثار الفصحاء الأولين، إنما هي دليلُ اضطراب الفكر، وجَهْد الذاكرة، ونُضوب القريحة، وعندي أنها لا تُسْتَحْسَن إلا في مقام واحد، وهو مقام الترسيخ والتوطيد بعد البيان والإثبات في المقامات العلمية من أيِّ نوع كانت، وتجوز بلا قيدٍ في مقامات التأثير، اللهمَّ إلا أن تكون مبتذلة أو محشاة[1].

فاجتنب هذه المترادفات جُهْدَك، واعلم أنها أقبح بدعة أُدخِلت علىٰ اللغة العربية، بل أصل فسادها وتضعضعها؛ لأنها وطَّأت أكناف المناصب الأدبية لكلِّ رَصَّافِ ألفاظٍ جَهِلَ أو عَلِم، وأحَلَّت باعة الخَرَز مِن سُوق البيان في مرتبة باعة الجواهر؛ فقتلت بذلك اللغة زمنًا طويلًا، وقتلت العلم والهِمَم عند أهلها ما شاء الله، فلا تكن من أعوانها علىٰ استمرار هذه الحالة، بل قاومْها وطاردْها وشدِّد النكير عليها حيث تجدها؛ فإنَّ مِن شأن الكاتب لا أن يكتفي بالكتابة ليُعْجِب الناس، بل أن يكون جنديًّا حرًّا صالحَ الضمير، يريد بأمَّته خيرًا ولبلاده

(١) كذا في الأصل. (ق)

رقيًّا وفلاحًا، وعليه أن يبدأ بإصلاح ما في عُهدته ليتبعه الآخرون كلٌّ في حِرفته.

أعود إلىٰ مقدِّمتك، وأترقَّب ما سيليها من تفصيل إجمالها، فماذا أقرأ؟ أقرأ: «وقد شهد له الأعداء قبل الأصدقاء، والأجانب قبل أبناء البلاد، أنه كان الفاتح الشهير، والمدبِّر الحكيم»، ثم «وهو الذي انتشل مصر من وَهْدة الشقاء، وأنقذها من حكم المماليك الظالمين»، ثم «وهو الذي أوجد لها حكومة نظامية، ورقَّىٰ الزراعة والصناعة، وأعلىٰ منار العلوم والمعارف»، إلىٰ آخر هذه الإجماليات التي ملأتَ بها صفحتين!

ولقد علمتَ -أعزَّك الله- أن كلَّ موضوع كتابيٍّ شبيهٌ بالجسم، وينبغي من أجل ذلك أن يكون وضعُه كوضعِه، فأين بعد الرأس عُنق الموضوع وأكتافه وصدره ممَّا ذكرتَه؟! فإن زعمتَ أن كلَّ ذلك رأسٌ فقد عَظُمَ مِن رأس! وأيَّ شيء أبقيتَه من المادَّة لتصنع به بقية الأعضاء؟!

ومهما يكن من الأمر، فقد عددتَ الحكومة والمدارس والريَّ والزراعة والصناعة علىٰ ما بدا لك، كأن لم يكن لكلٍّ منها زمنٌ ترتَّبَ بحسبه، ثم قضيتَ علىٰ نفسك منذ البدء بأن ترجع فيما بعدُ إلىٰ أمور ذكرتها قبلًا لغير فائدة مقصودة من التقديم والتكرار، وأدلُّ من هذين الأمرين علىٰ أنك لم ترتِّب الموضوع في فِكرك قبل الخوض فيه: أنك خالفتَ ترتيب العنوان الطبيعي، فأشرتَ إلىٰ ما شئتَ من الأعمال التي نسبتها إلىٰ محمد علي قبل أن تذكر من ترجمته حرفًا.

أما ترجمته، فكيف أوردتها؟ أتخيَّرتَ لها أسلوبَ العرب في الإيجاز وحشد الأخبار بعضها فوق بعض؟ أم آثرتَ أسلوبَ الغربيين الذين يؤرِّخون

زمن المولد، ويَصِفون النشأة والتربية وأمكنتَهما، والأطوار التي تقلَّب عليها الرجل إلىٰ أن بلغ أعظم مَبالغِه، ويَصِفون الحوادث التي جاءت ممهِّدة له سبيلَ ارتقائه، موطِّئة للأمر الذي تولَّاه فيما بعد، ثم يَشْرَعون في مجاراة الأيام معه في سيرته من جهة، وفي عمله من جهة أخرىٰ، إلىٰ أن ينتهوا إلىٰ النتيجة التي يريدونها، فيكمُل بها إظهارُ الرجل في المظهر المَرُوم؟

كلَّا، لم تدرك فصاحة الترجمة العربية مع إيجازها، ولا بلاغة الترجمة الإفرنجية مع إسهابها، ولكنني إخالك حملتَ القلم وقد ملأتَ دماغك من مطالعة كلامٍ علىٰ محمد علي في إحدىٰ جرائدنا اليومية التي لا تحتفل لمثل هذا البحث أكثر ممَّا تحتفل لإيراد خبر يوميٍّ مألوف، ثم طفقتَ تكتب بما أوحىٰ به إليك فكرك، وأنت يخطر لك ذكر أمر بتحقيقه[١]، فتعدل عنه إلىٰ التعميم لجهلك به. ولو كنتَ أجمعَ علمًا بالموضوع لسيَّرك الموضوع نفسُه تسييرًا حسنًا مؤدِّيًا مِن مقدِّمة موافقة للمقام إلىٰ نتيجة مقصودة قبلًا أو مولودة لساعتها، وكان ذلك أستَر للمقالة!

ثم ماذا أفدتنا من ترجمته؟ قلتَ: إنه وُلِد في قَوَلَة[٢] -في نحو أيَّة سنة؟-، وإنه قدم مصر مع الباشبُزُق[٣] الذين أرسلتهم الدولة العَلِيَّة في ذلك الوقت -مَن

(١) كذا في الأصل. (ق)

(٢) كافالا Kavala، تقع اليوم في شمال اليونان. (ق)

(٣) Başıbozuk قوات غير نظامية «مليشيات» في الدولة العثمانية. انظر: «المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية» لسهيل صابان (٥٦)، و«معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية» لمصطفىٰ الخطيب (٦٥). (ق)

هؤلاء؟ ولِمَ أُرسِلوا؟-، وإنه ترقَّىٰ بدهائه واقتداره واسترضائه للجند، ثم حبَّب إليه كبار المصريين، وأعجبهم منه بلاؤه وحسن تصريفه للأمور، فأجمعوا علىٰ توليته، -وما بيان كلِّ حادث تشير إليه في معطوفات هذه الجملة؟-، وهكذا أعدتَ لنا بعض ما ذكره الجبرتي مبتورًا ناقصًا، بعد كلِّ كلمة أو كلمتين منه محلٌّ لاستفهام!

وجريتَ في القصص مجرىٰ الجرائد اليومية أو أكثر الكتَّاب المعاصرين الذين ليسوا علىٰ طريقة العرب ولا العجم، فاللفظُ قَلِق، والترتيب مفقود، والروابط المعنوية بين أجزاء الكلام مُنْحَلَّة، والغاية المقصود بها إظهار ما لم يُظْهِره سواك من مُوجِبات رفعة الرجل وشهرته الكبيرة غير معلومة، والخبر كلُّه منذ مولد المُتَرجَم إلىٰ يوم جلوسه علىٰ أريكة مصر وثبةٌ في خلال الزمان أشبه بانطلاقة السَّهم في الهواء لم يَعْلَق عليه منه شيءٌ وقد وقع! وليس هذا كلُّه في شيءٍ من شروط الترجمة، ولا سيَّما التي يُقْصَد بها التمجيد أو النقد.

وعند فراغك من ذلك السَّرد عُدْتَ إلىٰ ما ذكرتَه في البدء من الأعمال، فكرَّرتَه في ألفاظٍ مختلفة، وزدتَه من البيان ما لا يفي بحاجة، كقولك مثلًا: «ثم رأىٰ أن حياة القُطْر لا تقوم إلا بالزراعة، فأكرهَ الأهالي علىٰ زراعة القطن، فلمَّا استغلُّوا إيراداته الوافرة باركوا اليدَ التي ساقتهم بالعصا إلىٰ زراعة ذلك الصِّنف». ففي هذه الجملة زدتَ علىٰ الإجمال السابق أن محمد علي أكرهَ الأهلِين علىٰ زراعة القطن، فزرعوه واستفادوا منه مالًا كثيرًا، وحمدوا اليدَ التي ساقتهم إليه بغير اختيارهم، ومثل هذه الزيادة التافهة في معنًى لا توجب عادةً تكرار جملة. ثم إن جهلك كلَّ شيء ممَّا كانت له صلةٌ بإدخال زراعة القطن في

القطر المصريِّ حملك علىٰ كتابة تلك العبارة المشوَّشة، المكرَّرة الألفاظ، الركيكة المبنىٰ، الدالَّة علىٰ السآمة، الناتجة من عدم إلمامك بما تذكره.

وربما كرَّرتَ فوضعتَ الجملة في موضع توطئةٍ فرعيَّة لشرحٍ فرعيٍّ، ثم أغفلتَ الشرح، كقولك في موضع آخر: «ولمَّا رأىٰ محمد علي أن الأمة المصرية طوعُ يده، وأنها صالحةٌ لكلِّ ما يُراد، بشرط أن تُقاد، جيَّش منها جيشًا جرَّارًا وفتح كثيرًا من البلاد». فما تلك البلاد التي فتحها؟ وكيف كان بلاء ذلك الجيش الذي تحوَّل فجأةً من فلَّاحين إلىٰ غزاةٍ فاتحين؟ وأيُّ سرٍّ بدَّلهم هذا التبديل في زمن قليل؟ لَمْ تنبئنا عن شيء من كلِّ هذا، فبقيتْ التوطئة لمعنًى في بطن التاريخ، وهو مالا يصحُّ في مثل هذا المقام.

أما الخاتمة، فقد جاءت علىٰ حدِّ سائر المقالة، نقرؤها فلا نُحِسُّ وهجَ حرارة الجوَاد الذي أخذ الشوطَ البعيد وثبًا، ولا نرىٰ أثرًا لاستقرارٍ جميل بعد صعود الفكر إلىٰ قِمَم الموضوع وهبوطه إلىٰ أعماقه، وبعد تقليب الأسفار، ونبش القبور علىٰ الأسرار، بل هناك انتهاءٌ كما يلفظ المسلولُ آخر نسماته بحركة من الاحتضار وانية، لا تشبه النَّزعة المُنْذِرة ولا النزعة القاضية، «وهكذا صعد هذا الرجل من الحضيض إلىٰ الأوْج، وبعد أن كان أحد الجنود المأجورين الخاملين أصبح رأسَ أسرةٍ من الأقيال الأمجاد المالكين».

نعم، إنك لم تكتب تاريخًا، ولكنَّك لم تُحْسِن مدح الميِّت الذي ردَّد صدىٰ شهرته الخافقان، وكان حسبكَ أن تعرف سيرتَه، ويدعوك إلىٰ مدحه إعجابُك بمزيَّة له فوق المزايا الأخرىٰ، ليتمثَّل في ذهنك الموضوع متسلسلًا تسلسلًا طبيعيًّا بإجماله وتفصيله في أصله وفروعه من أوَّله إلىٰ آخره.

والخلاصة .. إذا أردت أن تكون كاتبًا:

١- فاحفظ من مفردات العربية وأساليب فصحائها قدر ما تَسَعُ ذاكرتك. وهذا أول الشروط.

٢- ثم كن علىٰ علمٍ وافٍ كلَّ الوفاء بما تكتب عنه، واقصِد من الكتابة قصدًا معيَّنًا؛ ليتسنَّىٰ لك ترتيبُ الموضوع بمقتضاه. وهو الشرط الثاني.

٣- ثم دع تكرار اللفظ والمعنىٰ مستطاعَك، واجتنب خصوصًا المترادفات التي تَرِنُّ علىٰ فراغ. وهو الشرط الثالث.

٤- ثم أرسِل الكلام إرسالًا بلا كُلفةٍ سوىٰ ما تريده سلامةُ الذوق. وهو الشرط الرابع والأخير من الشروط العامَّة للإنشاء.

والله أسأل أن يوفِّقك وأمثالك الناشئين إلىٰ السبيل القويم، لتكونوا كتَّابًا نافعين، لا مخدوعين خادعين.

خليل مطران